وَعْدَةُ الولي سيدي يحي بن صفية في منطقة أولاد نهار بتلمسان مقاربة تاريخية وسوسيولوجية

The Waada of Sidi Yahia Bensfia in the region of Ouled Nhar in Tlemcen: a historical and sociological approach

د.قويدر قيداري، كلية الآداب واللغات جامعة معسكر- الجزائر

ملخص: سنسعى من خلال هذه الدراسة للحديث عن الوَعْدَة (موسم تكريم الأولياء)، باعتبارها ظاهرة سوسيولوجية وأنثروبولوجية، تمثل مهرجانا شعبيا تتداخل فيها مظاهر الثقافة الشعبية (المادية واللامادية) بالمعتقدات الشعبية والعادات والتقاليد والفنون الشعبية.. وهي تعرف في الذاكرة الشعبية الجزائرية أيضا، باسم (الزّردة أوالطَّعْمْ، الرَّكْبْ..).

وستتصف دراستنا بمقاربتين: مقاربة تاريخية؛ تبحث في أصول ظاهرة الوَعْدَة الخاصة بتكريم الولي سيدي يحي بن صفية في منطقة أولاد نهار الواقعة إلى الجنوب الغربي من مدينة تلمسان، على الحدود الجزائرية المغربية، ومقاربة سوسيولوجية ترصد بعض السلوكات الاجتماعية التي تتمظهر من خلالها.

دراستنا هذه نابعة من إدراكنا لأهمية مثل هذه الموضوعات المرتبطة بالمقدّس في المخيال الشعبي، ومن إدراكنا أيضا لضرورة إبراز بعض تأثيرات الشعائر الدينية والعرفية في السلوك الاجتماعي، بإمكاننا أن نشير هنا إلى دور الأعراف والممارسات الطقوسية، كما هو الأمر في الوعدة، في توجيهه سلوكات الأفراد داخل القبيلة وضبطها، لكن فهم هذه السلوكات ونسقيتها يحتاج إلى تحليلها بدقة وعمق، وتجاوز تجلياتها الظاهرة للوصول إلى كوامنها الخفية، والأسباب المستترة وراءها. هذا كله لا يتأتى إلا بالبحث في العلل التي أوجدت هذه الممارسات الشعبية والطقوس الدينية، والوظائف التي تؤديها في الحياة الاجتماعية. من هنا تأتي أهمية هذه المقاربة التاريخية والاجتماعية لوعدة الولي سيدي يحي بن صفية.

الكلمات المفتاحية: وَعْدَة، سيدي يحي بن صفية، أولاد نهار بتلمسان، تاريخية، سوسيولوجية.

Abstract: Though this study, we will study the Ouada (the tradition of celebration of the Saints) as a social phenomenon. The Ouada is a popular festival that brings together manifestations of popular culture, popular beleifs, customs, traditions and folklore. It is Know in the popular memory by the names of Zerda, Taam, and Raakb. In this research, we will analyze the historical and sociological dimension of the Ouada phenomenon that honors Saint Sidi Yahia Bensfia, which takes place in the region of Oulad Nhar locatd southwest of the tlemcen city, on the Algerian-Moroccan border.

Our study comes from our awareness of the importance of this type of subjects related to the sacred in the imagination of the popular, but also the need to highlight some of the effects of religious and customary rituals in social behavior. We can emphasize here the role of customs and ritual practices in the orientation and control of the behavior of individuals within the tribe. However, understanding these ritual behaviors and their norms requires a deep analysis that must go beyond immediate appearances and access hidden reasons. All this can only be done by examining the reasons for these popular practices and religious rites and their functions in social life. Thus, it is easy to demonstrate the importance of this historical and social approach of the Waada of Sidi Yahya Ben Safia Sidi.

Keywords: Ouada Sidi Yahia Bensfia, Oulad Nhar Tlemcen, historical, sociological**.**

مقدمة:

تشترك منطقة أولاد نهار بتلمسان على غرار كثير من الجهات الجزائرية في إحياء مواسم الصالحين "الوعدات" باعتبارها موروثا ثقافيا شعبيا مقدسا ومشتركا، وتعتبر هذه الممارسات الاجتماعية الشعبية المرتبطة بالمقدّس وما تفرزه من نظم اجتماعية وسلوكات شعبية من أهم الموضوعات التي شغلت بال الباحثين الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين قديما وحديثا، ولعل ذلك راجع إلى كون مثل هذه الطقوس الدينية المرتبطة بالفضاءات المقدسة (فضاء الولي تحديدا) تمثل أحد الأنساق الاجتماعية الكبرى التي تلعب دورا في تشكيل وبناء النسيج المجتمعي للمجموعات البشرية التقليدية وضبطه، بحيث تمكننا من فهم مكنونات كثير من السلوكات الاجتماعية وأبعادها الثقافية.

ومثل هذه الممارسات الاجتماعية تناولتها مقاربات كثيرة ومختلفة: تاريخية، نفسية، أنثروبولوجية، أدبية، فولكلورية وذلك لتشعباتها واختلاف أبعادها وتداخل الممارسات فيها (Attitude) (هيئة التجلي) بأنواع التمثلات (Représentation) (هيئة الإضمار).

وسنقف من خلال هذه الدراسة على الأبعاد التاريخية لظاهرة الوعدة في منطقة أولاد نهار لمعرفة الخلفيات التي ساهمت في بلورتها واستمراريتها، ثم سنرصد الأبعاد الاجتماعية والثقافية التي تغذيها، وبعض الوظائف التي تؤديها، والتي تحقق لهذه المجموعة قوتها وتماسكها وهويتها لمواجهة مختلف الظروف والتغيرات الراهنة التي قد تساهم في تفكك هذا البناء الاجتماعي أو احتوائه.

1.التعريف بالمجال البشري والجغرافي للدراسة:

تستوطن قبيلة أولاد نهار الجنوب الغربي لولاية تلمسان الجزائرية، وهي قبيلة عربية إدريسية، تنحدر من ذرية سيدي يحيى بن عبد الرحمن المكنّى (بن صفية) -1529م/1610م- وذرية

أخويه سيدي أحمد وسيدي موسى، ممتزجة ببطون وفرق وأسر ذات أصل عربي وأمازيغي، تكونت منذ أواخر القرن 16م، واستوطنت الجزء السهبي للمنطقة والجزء الجبلي الممتد من جبل سانف، مرورا بجبل بني يعقوب وجبل تونزايت وما بينهما إلى المشاميش والمسيون، وهي المنطقة التي لا تزال تسكنها لحدّ الآن(الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/ 1364ه، ص25- 27/ قيداري قويدر، 2009، ص17-37).

يتصل نسب قبيلة أولاد نهار كما هو ثابت عندهم في بعض التقاييد المخطوطة والمتوارثة بينهم بالإمام إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الشأن قال عبد القادر الفاسي في تاريخه كتاب الأصول: " ومن أخيار الأشراف الولي الصالح والشيخ الناصح سيدي يحيى بن عبد الرحمن المكنى (بن صفية)، وهو جد أشراف أولاد نهار"(الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/ 1364ه، ص25).

هناك كتب كثيرة –توزعت بين المخطوطات والمصادر التاريخية والمراجع العربية والفرنسية- تعرضت لعمود النسب الشريفي لقبيلة أولاد نهار، سواء تلك التي ذكرته كاملا أو تلك التي تعرضت لبعض الحلقات منه، ولا يمكننا مجاراتها جميعا، وسنكتفي فقط بذكر بعضها على سبيل الذكر لا الحصر:

-الجيلاني بن عبد الحكم - المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحيى بن صفية- مطبعة بن خلدون، تلمسان ، (د.ط) ، 1364هـ،(ص26-27).

-أحمد بن محمد العشماوي – السلسلة الوافية والياقوتة الصافية- المأخوذة من كتاب : "مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب" (في أربعة كتب)، جمع وتأليف الشيخ بالهاشمي بن بكار، مطبعة بن خلدون، تلمسان، (د.ط)، 1961، (ص265- 268).

-محمد بن الحسن بن يحيى بن سيدي يحيى بن صفية- البستان الطيب في مناقب أبي يحيى وأبي الطيب- (مخطوط)، (ص 03).

التقاييد: وهي عبارة عن نسخ مخطوطة من مشجرات نسب أولاد نهار، توارثوها خلفا عن سلف، وهي لا تختلف مع المراجع الأساسية التي تناولت نسب أولاد نهار، كتب هذه التقاييد كما سمعها من عقلاء أولاد نهار وشيوخهم، السيد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن الحبيب الجكني الرمضاني التندوفي، الإمام بمسجد العريشة آنذاك، وفي ذلك يقول: "أما بعد فهذه تقييدات التقطتها من التقاييد القديمة التي هي بأيدي أولاد سيدي يحيى بن صفية، والتي سمعتها من أفواه الثقاة منهم، والأخبار المتواترة بينهم والشائعة عندهم".

-Capitaine Noel, « Document Historique sur les tribus de l’annexe d’El aricha », B.S.G.O (Bulletin trimestriel de la société de la géographie et d’archéologie d’Oran), fondée en 1878, imprimerie L Fouque –Oran , Sep/Dec 1917, p 248-250.

-Jaque Berque : Ulemas fondateur de Maghreb 17ème siècle, Bibliothèque arabe sindebad , Paris , 1982, p57.

-أ. أحمد بن صفية، مشجرات نسب أولاد نهار، تلمسان، دراسات مخطوطة.

وحول منطقة أولادنهار بتلمسان يذكر الكاتب النقيب نوال (Capitaine Noel): أن الأمازيغ عمّروا هذه المنطقة في فترة ما قبل الإسلام، إذ يقول في هذا الشأن: " توجد في منطقة أولاد نهار آثارا لبناءات بربرية تبدو أنها تعود إلى ما قبل الإسلام، ولكن يصعب أن نحدد لها تواريخ حتى تقريبية، وتوجد هذه الآثار البربرية في المنطقة الجبلية موزعة في كل من جبال تنوشفي وتونزايت، ودشرة اليهودي، وبأعلى عين تادارت، وخليل، ودار الصنعة وسيدي الجيلالي، والمحجوب، وحاسي العابد، ومضيّل، والمشاميش، والمسيون، وجبل سيدي العابد، وسيدي المخفي، والصّيادة"(Sep/Dec1917Capitaine Noel, p237).

وقد ظلت هذه المنطقة معمّرة من قبل البربر الزناتيين، إلى غاية الفتح الإسلامي، حيث اعتنق سكانها الدين الإسلامي تدريجيا، بل أن عقبة بن نافع في ولايته الثانية بين سنتي 62-63هـ/681-683م فتح المغرب الأقصى معززا ومآزرا بفلول كثيرة من القبائل الزناتية المنتشرة في مناطق الحدود الجزائرية المغربية(إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، 1985، ص19).

وتأثرت منطقة أولاد نهار بالأحداث التاريخية التي عرفها المغربان الأوسط والأقصى على وجه الخصوص منذ العهود الإسلامية الأولى، نظرا لأهمية موقعها الإستراتيجي الذي يتحكم في ملتقى منطقتين جبلية وسهبية، لهما أهميتهما في الحروب وفي حركة السكان، ويتحكم أيضا في ممر طبيعي يربط بين الشرق والغرب، وفي إحدى أهم الطرق التجارية بين تلمسان والصحراء، مما جعل هذه المنطقة تتميز بمسالك ومعابر استراتيجية استعملتها جيوش الدول المتحاربة (خاصة الزيانيين والمرينيين) خلال تلك العهود من تاريخ المغرب، وذلك لمرورها بمناطق منيعة وتحكمها في الجهات المحيطة بها.

وبذلك كانت منطقة أولاد نهار محطة للتخييم والإقامة والانتجاع للقبائل التي كانت تجوبها أثناء حركتها بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كما كانت عرضة للصراعات والحروب التي كانت تقع بين دول المغرب العربي آنذاك لاسيما بين المرابطين والموحدين من جهة، وبين الزيانيين والمرينيين من جهة ثانية.

يقول إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي: في النصف الثاني من القرن11م انصهر مرة أخرى العنصر العربي بالعنصر الأصلي في بلدان الغرب الإسلامي بتوافد فصائل من قبائل بني هلال وبني سليم،.. ولعل أهم القبائل العربية التي استوطنت جهتي غرب الجزائر وشرق المغرب- تنتسب إلى شعبتين أساسيتين، هما بنو هلال والمعقل(إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، 1985، ص68).

وقد قامت تلك القبائل العربية وفروعها المنحدرة منها بدور كبير وخطير في التاريخ السياسي والثقافي والحراك الاجتماعي والامتزاج الديمغرافي داخل المجال الجغرافي الذي استوطنته، ولا تزال بعض الفروع المنحدرة من تلك الشعبتين ممتزجة بالتركيبة الاجتماعية لقبيلة أولاد نهار ومحافظة على تسمياتها المعروفة، مثل العْمور وعياض.

2.سبب تسميتهم بـ "أولاد نهار":

ترجع تسمية القبيلة بـ "أولاد نهار" إلى حادثة وقعت لسيدي محمد بن أبي العطاء –الحلقة السابعة في عمود نسب سيدي يحيى بن صفية –جد أولاد نهار الحاليين-(سيدي يحيى بن صفية بن عبد الرحمن بن موسى بن ابراهيم بن ابراهيم بن محمد بن زيد –الملقب بـ نهار- بن سيدي محمد بن أبي العطاء) وقد تعرّضت لهذه الحادثة كثير من الدراسات بالشرح والتفصيل، لعلّ من أهمّها ما وجدناه مثبتا في خمسة دراسات، وبعض التقاييد التي تمكنّا من الاطلاع عليها، والتي اتفقت جميعها حول رواية واحدة في تعليلها لسبب التسمية.

وملخّص هذه الروايات: أن الجدّ الأعلى لسيدي يحيى بن صفية وهو سيدي محمد بن أبي العطاء كان عائدا من حجة لبيت الله الحرام، فسمع بخبره واصل بن وانزمار السويدي، وهو أحد كبار قطاع الطرق في منطقة السهوب فسار رفقة ألف فارس ليعترض سبيله وينهب ممتلكاته.

وأغار على بعض أملاك محمد بن أبي العطاء الذي كان منشغلا بالصيد بعيدا عن الرّبع (المحلة)، ولمّا رجع إلى محلّته لم يجد سوى الرعاة الذين أخبروه بما جرى فتتبّع آثارهم إلى أن التحق بهم، فانطلق نحو واصل بن وانزمار وفي أثره عدد من الفرسان من خيرة أبطال العرب وهو ينشد :

هْوَّلني شَوقْ احْبَابِي ∴ كَاتَمْ السَّـــر قْنُـــــوطْ

مَكْنُـــو لِـــــــي دِرْعِـــي ∴ والسّيفْ المَسقُـــــــوطْ

فتبارز الرجلان ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس في واد كان يسمى وادي اللوز، يقع شرق مدينة تيارت، انتصر فيها محمد بن أبي العطاء على خصمه، فقتله، وصار ينشد :

زُرتْ قَبـرْ النْبي العدنانـــي ∴ في طْرِيقْ مُولايَ سُبحانَـه

بْجَاهَهْ انْقذْني سُلطَـــــانـــي ∴ فلساني فصيح في رضـــاهْ

بسيفي قْتَلتْ واصَل الكافر ∴ فصارْ في جهنَّم يا ويـلاهْ

فأصبح وادي اللّوز منذ ذلك اليوم يسمّى بـ- وادي نهار واصل- ويطلق عليه أحيانا نهر واصل، وهو رافد من روافد وادي الشلف، وفي ذلك اليوم (يوم المبارزة) وُلِدَ لسيدي محمد بن أبي العطاء ولد سمّاه زيدا وأطلق عليه لقب (نْهَار) تيمّنا وتبرّكا بانتصار أبيه على عدوّه واصل بن وانزمار في ذلك اليوم المشهود أو (النّهار) المعلوم، وعرف أولاده (أولاد زيد المكنّى بنهار) بعد ذلك بأولاد نهار، وأصبحت ذريته تحمل اسم أولاد نهار وصاروا لا يُعرفون إلاّ بها، وخاصة بعد ظهور الولي الصالح سيدي يحيى بن صفية.

ودفن زيد (المكنى بـ نهار) بعد موته بجوار أبيه في عين الفضّة (جبل راشد أو جبال العمور). (الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/ 1364ه، ص38-40/ أحمد بن محمد العشماوي، 1961، ص265-266./ خليفة بن عمارة، 2002، ص92/337-336 ,Jaques Berque , 1978, p).

3. سيدي يحي بن صفية جد أولاد نهار:

ولد الشيخ سيدي يحيى بن عبد الرحمن المكنى بابن صفية سنة 935هـ الموافق لـ: 1529م، ونشأ في بيئة دينية، حيث درس في زاوية جده لأمه الشيخ سيدي سليمان بن أبي سماحة اللغة

والعلوم الإسلامية، على أساس أن التصوف يقتضي التمسك المطلق بالقرآن والسنة في العقيدة والسلوك معا.

ثم واصل سيدي يحيى بن صفية دراسته بوادي (غِيرْ) في زاوية مولى السهول بالقرب من مدينة بوذنيب التي تقع إلى الشرق من مدينة الرشيدية بالمغرب الأقصى، وتخرّج على يد رئيسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن السَّهلي، وتبعا لتوجيهات شيخه توجّه نحو الشمال لنشر العلوم التي درسها وترسيخ الطريقة الشاذلية التي اتّبعها.

فاستقر بجبال تلمسان (جبال بني سنوس)، وقد أخذت سمعته تتنامى بسرعة، حيث كثر تلاميذه ومريدوه وأتباعه، يقول الجيلاني بن عبد الحكم: "ولما استقر –سيدي يحيى- بالبلد واشتهر أمره في سائر الأقطار، أتته الناس من كل جهة أفواجا، وهرعت إليه من جميع النواحي والأصقاع للأخذ عنه وخدمته والجوار له، حتى تكونت منهم قبيلة ترحل برحيله وتنزل بنزوله، وكانوا ينتجعون بمواشيهم في فصل الشتاء والربيع إلى جهة الصحراء التي قدموا منها، ويرجعون إلى بلدهم التي صارت مأوى لهم ومسقطا لرؤوس ذرياتهم... وهكذا أصبحت زاوية سيدي يحيى بن صفية مزدهرة وعامرة وبلغت شأوا كبيرا(الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/ 1364ه، ص32-34).

ذلك أن الرباطات والزوايا الصوفية كان لها إشعاعها الخاص وتأثيرها المتميز في النسيج المجتمعي، ليس لطابعها الديني والتعبدي فحسب؛ بل للعلاقات الإنسانية والمنفعية التي كانت تنسجها بين روادها ومريديها، وللدور السياسي الذي كانت تقوم به أحيانا مع أو ضد السلطة.

ففي نظر واعتقاد من كان يلتزم بأية طريقة صوفية، فإنّ موقع الزاوية حيث يوجد شيخ الطريقة كان له حرمة فائقة وقدسية عظمى حتى بعد وفاة أصحابها، فكانت مأوى الزوار والمسافرين، وملجأ الضعفاء والمحتاجين، وقبلة المرضى والمصابين، وكانت أيضا مأمن العصاة والخائفين، ووجهة المتحاربين والمتخاصمين، ولكل هذه الخصائص كانت تدفع لها الصدقات والقربان والهبات، جلبا للمنفعة الآجلة والعاجلة وتوطيدا لوشائج التضامن والتكافل مع الآخرين(أحمد بن محمد العشماوي، 1961، ج2، ص151).

والثابت عند رجال التصوف أن المعرفة الربانية لا تنتقل أبا عن جد إلاّ نادرا، لأن الله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وقد رمز سيدي أحمد بن موسى الكرزازي (شيخ الطريقة الكرزازية، وصاحب زاوية كرزاز، ورفيق سيدي يحي بن صفية في الطريق الصوفي، وله شعر شعبي صوفي غزير ومشهور يُتغنى به كثيرا في حلقات الحضرة – السماع الصوفي- في الجنوب الغربي للجزائر) إلى ذلك المعنى بقوله:

السِّر سِـــــــرّك يـــا رَبْ ∴ لـمن اتريد أنت تعطيــه
لَوْ كَانْ سِرَّ الله لِلْبَيـعْ ∴ اللّي اكْثَـر مَالُو يَشْرِيـــهْ
ومْنِيـــنْ جَـا بـالتَّسْلِيـــم ∴ اللّي صْـدَقْ هُـو يَدّيـــــهْ

والثابت أيضا أن سلوك هذا الفن يقتضي الاسترشاد بشيخ عارف على قيد الحياة، يقول الشيخ أبو حامد الغزالي: "فاعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته،

ويجعل مكانها خلقا حسنا، ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته، ويكمل ريعه"(أبو حامد الغزالي، 1980، ص63).

وقد أراد الله بان يكون في الأرض شيخ ومريد، صاحب ومصحوب، تابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة:

وفي ذلك يقول بعضهم:

السَّر بالخْشُوع يْفِيـــــدْ ∴ والذَّكْر للقَلبْ جْبِيـــرَه

وإذا صْفَا قَلب المريد ∴ الشَّيخْ يْوَرّيهْ المْرِيـرَهْ

النّاسْ في الغَيْباتْ تْزيدْ في العْلُومْ ∴ وانْتَ الذَّنْبْ يْصُبْ عْليكْ كِي المْطَر

لَوْ كان عَنْدَكْ شَيخْ تْجيك العْلُـــــوم ∴ ومْنِين بْقَـــــــــــــات لْرَايَك مَاكْ يَنْحْصَـرْ

ويصف الكاتب النقيب (Capitaine Noel) الجو العام في المنطقة المعنية بالدراسة قبل مجيء سيدي يحيى بن صفية بقوله : " كان مجتمع هذه المنطقة يعيش في فوضى، فيها تحل القوة محل القانون والعدالة، وكانت النفوس ناضجة لتقبّل نفوذ أي رجل تقي ورع ودَيّن، وفي هذه الظروف وفد على المنطقة الولي سيدي يحيى بن صفية جد أولاد نهار الحاليين"(Capitaine Noel, Sep/Dec 1917, p249-250.).

وقد ارتبط اسم الولي الصالح سيدي يحي بن صفية بشخصيتين صوفيتين جزائريتين ذاع صيتهما واكتسحت طريقتهما كامل الجنوب الغربي للجزائر، وحتى مناطق من شرق المغرب الأقصى، هما: الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المدعو "سيدي الشيخ"، وهو من قرابته(ابن خاله)، والشيخ سيدي أحمد بن موسى الكرزازي، وقد قاسما الشيخين المذكورين الشيخ سيدي يحي رحلة السير إلى الله وطلب العلم على يد شيخهم سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي أحد الأولياء الراسخين في العلم والولاية، والذي أخذ بدوره عن الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الشريف الراشدي ثم الملياني، صاحب الكرامات الشهير ورجل السياسة الخطير وولي مليانة الموقر، الذي كان يعدّ طيلة قرون من أوتاد المغرب وأقطاب الطريقة الشاذلية في القرنين(15و16)، وهو من خريجي مدرسة تلمسان الفكرية أواخر ق 9هـ(مدرسة محمد بن يوسف السنوسي).

سيدي أحمد بن موسى الكرزازي: ولد سنة 1502م بكرزاز بالجنوب الجزائري وتوفي بها حوالي 1610م، بعد حياة قضاها متعبدا وزاهدا، ينتهي نسبه إلى الإمام إدريس بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلقى علوم اللغة العربية والفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن، والتصوف ومبادئ الطريقة الشاذلية على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن السهلي، أسس لأتباعه طريقة صوفية تعرف بـ "الكرزازية" نسبة لمنطقة كرزاز، أو "الموساوية" نسبة إليه. له ديوان شعري شعبي ضخم، لا يزال جانب مهم منه مخبوء في صدور فقراء الحضرة وأتباع الطريقة الموساوية الكرزازية(Louis Rinn, 1884, p342-547).

سيدي عبد القادر بن محمد المدعو سيدي الشيخ: هو جد أولاد سيدي الشيخ، وصاحب القصيدة المشهورة المسماة "الياقوتة"، ومؤسس الطريقة الشيخية، ولد حوالي 1533م، وتوفي سنة 1616 (Louis Rinn, 1884, p349-351).

ومما جاء في ياقوتته من معاني الحب والثناء والإجلال للشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي نجتزئ هذه الأبيات:

فأوّلهم في الذكر شمس وجودنـا ∴ وقطب نهـى علـومنا اللدنيّـــــــــــــــة
إليه انتهت رئاسة القوم فارتـقى ∴ على صهوات المجد من غير مريّة
أبو عابد الإله يسمّـى محمـــــدا ∴ إلى عـابد الرحمن يعزى بنسبـــــــــــة
عليه سلام الله مـا ذرّ شـــــــارق ∴ ومـا غـنّى طير باللغات الحنينـــــــة
فعنه أخذنا أعني عن قمر الدّجى ∴ ورثنا طريق القوم دون ا استرابة(Millad Aissa, 1986, p35-37).

4. طريقته الصوفية:

لم يسعَ سيدي يحيى بن صفية إلى تأسيس طريقة صوفية خاصة به كما فعل من قبل أخويه في الطريق، الشيخ سيدي أحمد بن موسى الكرزازي، وابن خاله سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)، وإنما بقي ثابتا على طريقة شيخه محمد بن عبد الرحمن السهلي وملتزما بها؛ ألا وهي الطريقة الشاذلية، نسبة إلى مؤسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي، ولقب الشاذلي نسبة إلى شاذلة، وهي قرية تقع في جبل زغوان جنوبي تونس، كان قد اعتكف في مغارة بها رفقة بعض مريديه. ولد الشاذلي بـ"غمارة" قرب مدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة 593هـ/1196م واشتغل بالعلوم الشرعية مذ كان صغيرا وأتقنها مع كونه ضريرا، وقد تتلمذ لشيخه العارف بالله عبد السلام بن مشيش، وتوفي رحمه الله بصحراء عيذاب ببلاد الصعيد عام656هـ/1258م(عبد العزيز بن عبد الله، 2001، ج2، ص62-70).

كما لم يجبر سيدي يحيى بن صفية أبناءه على اتّباع نفس الطريقة التي كان يسلكها، لذلك وجدنا ابنه سيدي الجيلالي يتبع مشربا روحيا آخر، وهي الطريقة القادرية، فسيدي يحيى بن صفية كان يؤمن بأن الطرق بعدد أنفاس البشر وكلها تصل إلى الله.

5. وفاة سيدي يحيى (بن صفية):

لم يزل سيدي يحيى بن صفية ينفع الناس بالقرآن الكريم وبتعليمهم المسائل الشرعية والمطالب الدينية والوعظ والإرشاد، وإقامة حلقات الذّكر فضلا عن انفراده للتعبد والتدبر والتهجد في خلواته الكثيرة، والتي من أهمها خلوته "في الصّيّادة" (منطقة سيدي الجيلالي)، وخلوته "بالعبادة" (جبل يقع إلى الجنوب الغربي من ضريحه الكائن بحوض بوغدو بلدية سيدي الجيلالي، جنوب تلمسان).

وكذلك إسهاماته في فضّ النزاعات بين الأفراد والأسر والقبائل وبعث روح الأمن والأمان في سكان المنطقة وما جاورها، فقد كان يمثل للجميع شخصية "كاريزماتية" رسمت ملامحها عوامل كثيرة، أولها: نسبه الشريفي من جهة والده (عبد الرحمن بن موسى)، ثانيها: نسبه البوبكري الصديقي (نسبة لأبي بكر الصديق) من جهة والدته (لالة صفية بنت سيدي سليمان بن أبي سماحة)، وثالثها: تخرجه على يد الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، وانتظامه بذلك في السلسلة الشاذلية الذائعة الصيت آنذاك رفقة ثلّة من أهل الولاية والصلاح كالشيخ سيدي أحمد بن

موسى الكرزازي، والشيخ سيدي عبد القادر بن محمد، هذا فضلا عن تقواه ومروءته وكراماته الكثيرة، التي تعرض لها صاحب المرآة الجلية بالتفصيل.

يقول الجيلاني بن الحكم مؤرخا لوفاة الولي سيدي يحي: "ومازال سيدي يحيى بن صفية على تلك الحالة المرضية والترقي في الدرجات والأسرار والنطق بالحكم الربانية ينهض حاله ويدل على الله مقاله، إلى أن توفاه الله واختاره لجواره راضيا في سنة 1018هـ الموافق لـ 1610م، ودفن رضي الله عنه ببلاده هذه بوادي بوغدو في جبل سيدي محمد السنوسي على بعد أربعة عشر ميلا (حوالي 15كلم) من سبدو، وعليه قبّة عظيمة يقصدها الناس للزيارة والتبرّك"(الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/ 1364ه، ص42).

6. التركيبة الاجتماعية لأولاد نهار:

التركيبة الاجتماعية لقبيلة أولاد نهار تتكون أساسا من أبناء الولي سيدي يحيى بن صفية وأخويه سيدي أحمد وسيدي موسى **(ويطلق عليهم أبناء الصّلب)**، وأتباعه الذين نزلوا بزاويته واستقروا عنده بذريتهم **(ويطلق عليهم أبناء القلب)**.

فلمّا استقر سيدي يحيى بن صفية في هذه المنطقة، واشتهر أمره أخذ الناس يفدون عليه للأخذ عنه، والنزول عنده، والالتياذ بجانبه، فبعضهم اختار المقام عنده بأهليهم وأولادهم، والبعض الآخر أخذ عنه العلم والعهد و مبادىء الطريقة الشاذلية ورجعوا إلى أوطانهم.

فأما من اختاروا المقام عند سيدي يحيى بن صفية، فإنّ ذريتهم تنزل مع أولاده وأولاد أخويه سيدي أحمد وسيدي موسى، ويطلق عليهم بعض المشايخ اسم **(أولاد القلب)**؛ أي تجمعهم بالشيخ سيدي يحيى بن صفية وأخويه وذريتهم الأخوة الإسلامية والمحبة في الشيخ والانتساب إلى نفس الطريقة الصوفية، وقد كان الولي سيدي يحيى بن صفية كثيرا ما ينبه إلى عواقب القيام باتخاذ النسب الطيني ذريعة للتفرقة بين الجموع التي تلتف حوله، ويحذّر من مثل هذه الأفعال المنافية للتعاليم الإسلامية السمحاء(قيداري قويدر، 2009، ص83).

فالقبيلة لا تتحدد فقط بانحدارها من جد مشترك بقدر ما تتحدد بوحدة التسمية والمجال والعيش المشترك وفق نفس النمط من العادات والتقاليد والأعراف، والتراث المشترك، وممارسته بكل فخر واعتزاز، مع وحدة الهدف.

7. وَعْدَة "موسم تكريم" الولي سيدي يحيى بن صفية:

تهتم القبائل الجزائرية والطرق الصوفية على حد سواء بالمناسبات الدينية، وأهمها ذكرى المولد النبوي الشريف، وليلة القدر، وليلة الإسراء والمعراج، ورأس السنة الهجرية، كما تحتفل كل جهة بذكرى وليّها أو رجلها الصالح.

والأصل في إقامة المواسم الشعبية أو "الوَعْدات"أو "الطَّعْمْ" أو "الزَّرْدَات" أو "الرّكْبْ" كما يطلق عليها في بعض الجهات، في عرف الثقافة الشعبية للمنطقة المدروسة هو الاعتبار بسيرة الولي الصالح، والانتفاع بذكراه وتجربته الشخصية في سيره إلى الله، وكيف انتصر هذا الولي أو ذلك على النفس ووساوسها، والدنيا ومغرياتها والشيطان ومكائده والهوى ونوازعه، حيث أن السير إلى الله في عرف الصوفية يقتضي تجاوز أربع عقبات، يعبرون عنها شعرا:

إني بليتُ بأربع مـــــا سُلّطـــوا إلّا لأجـــل شقاوتي وعنـــائي

إبليس والدنيا ونفسي والهـــــوى كيف الخلاصُ وكلّهم أعدائي

وأيضا يتذاكرون ويتناقلون كيف تعامل هذا الولي الصالح مع الخلق بالحلم ونكران الذات والقدوة الحسنة ومع الخالق بالصبر والشكر والرضا والتسليم، وكيف عمل على توحيد الكلمة ونشر الفضيلة والبر والإحسان وإشاعة الأمن والأمان بين الجموع الملتفة حوله.

وظاهرة الوَعْدَة في المخيال الشعبي لأهل المنطقة هي فرصة للتجمع الشعبي (الأفراد، الأسر، العشائر والقبائل) لأجل تمتين أواصر التعارف: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [الحجرات/13]، وتحقيق صلة الرحم بين الناس التي أوصى بها النبي عليه الصلاة والسلام، والتعاون على البر والتقوى وفض النزاعات والخصومات بين الناس، والانصراف إلى الله تعالى بذكره، والتعبد له والاستماع إلى القرآن الكريم، والانتفاع بوعظ رجال الدين من العلماء والفقهاء، إلى جانب إخراج الصدقات.

وإحياء هذه المواسم الشعبية (الوَعْدَات)، عادة إنسانية من أصل طبائع الأمم، ومناسبة هامّة من مناسبات الانتعاش الثقافي والنفسي والاجتماعي والتجاري والفُرجوي، وهي أيضا من أهم الشعائر والمناسبات التي تناولها الباحثون الاجتماعيون والأنتروبولوجيون بالدراسة والتحليل، وقد أجمع كثير منهم على أن هذه المواسم الشعبية، تتحقق من خلالها جوانب كثيرة، يمكننا إجمالها في أربعة نقاط: الجوانب الاجتماعية، الجوانب الدينية والثقافية، والجوانب الترويحية والفنية، الجوانب الاقتصادية والتجارية.

ووَعْدَة "موسم تكريم" الولي سيدي يحيى بن صفية لا تزال تمثل مهرجانا شعبيا، ومنبرا للكلمة الطيبة، والمواعظ الحسنة، وفضاء لتدارس سير الرجال من أهل الصلاح والتصوف والفضل، وساحة لإقامة حلقات الذكر والحضرة (السماع الصوفي)، بالإضافة إلى كونها أسواق تجارية تعمل على تنشيط الحركة الاقتصادية في المنطقة، كما يمكننا رصد بعض الجوانب الاجتماعية والثقافية والترويحية التي تتحقق وتتمظهر في الكثير من السلوكيات والمشاهد والأنشطة أثناء إقامة هذا المهرجان الشعبي الضخم.

1.7 الأصول التاريخية لهذه التظاهرة الشعبية في المنطقة:

تقول الروايات المتواترة في منطقة أولاد نهار أن هذه التظاهرة الشعبية أو (الوَعْدَة)، أول ما بدأت كانت في شكل موعد يلتقي فيه أبناء شيخ القبيلة ووليّها سيدي يحيى بن صفية وأتباعه عند أبيهم وشيخهم سيدي يحيى بن صفية، بعد الانتهاء من الموسم الفلاحي، وذلك منذ أواخر القرن 16م.

وبعد وفاة سيدي يحيى بن صفية سنة 1610م، استمر هذا اللقاء أو التجمع ليتحول تدريجيا إلى موسم تكريمي سنوي يطلق عليه شعبيا (وعدة سيدي يحيى بن صفية) يحضرها أحفاده وأتباعه وافدين إليها من جهات مختلفة، ويحضرها معهم ممثلوا قبائل عديدة من الجزائر، وحتى من شرق المغرب الأقصى في فترات خلت، بالإضافة إلى مشاركة الهيئات الرسمية فيها منذ الاستقلال إلى يومنا هذا.

فهذه الاحتفالات الشعبية العامة (المواسم أو الوَعْدَات) في الحقيقة عبارة عن عادة جماعية مورست في مناسبة معينة، وشيئا فشيئا اتخذت صفة الممارسات الاجتماعية الرسمية، يمليها الشعور الجمعي، حيث تلتقي فيها الشعائر والطقوس والعادات والتقاليد والمراسيم والتراث الشعبي.

والعادة من العبث الاقتصار عند محاولة تفسيرها على إرجاعها إلى صورها القديمة وأصولها الغابرة، فالعادات الشعبية ظاهرة تاريخية ومعاصرة في نفس الوقت، وقد تبدو لنا في بعض الوقت خالية من المعنى، فهي تتعرض لعملية تغير دائم بتجدد الحياة الاجتماعية واستمراريتها(محمد الجوهري، 2006، ص38).

يقول الجيلاني بن عبد الحكم مؤرخا لهذه المناسبة الشعبية: "وقد جرت عادة ذريتهم –قبيلة أولاد نهار- ومن معهم، ممن لهم محبة في سيدي يحي بن صفية منذ توفي إلى الآن أن يعقدوا عليه احتفالا باهرا تذكارا له وتبرّكا به ويكون ذلك الاحتفال كل سنة في فصل الخريف، بموضع تربته، تجتمع فيه قبيلة أولاد نهار وغيرهم، ويضربون بيوتهم التي خفّ محملها، قرب ضريحه مفرّقة تحت الأشجار"(الجيلاني بن عبد الحكم، 1953م/1364ه، ص42).

ينتظم إذا هذا الاحتفال الموسمي في شهر سبتمبر من كل سنة –ويعقد أحيانا في شهر أوت استثناء – وذلك بعد انتهائهم من موسمهم الفلاحي وجمع حصائل سنتهم الفلاحية، وقبل الاستعداد للموسم الفلاحي الجديد، وكانت وعدة سيدي يحيى في الماضي تفتتح رسميا في منتصف الشهر القمري، واختيارهم هذا التوقيت لم يكن اعتباطا، فاكتمال البدر يكون في منتصف الشهر القمري، وبالتالي فهذا التوقيت يسمح لهم بالاستعانة بضوء القمر في احتفالهم، خاصة عند انعدام الكهرباء في الماضي.

2.7 الأبعاد السوسيولوجية في هذه التظاهرة الشعبية:

تساهم مثل هذه المناسبات الشعبية بدور بارز في تدعيم العلاقات الاجتماعية، فهي فرصة لتلاقي أفراد الوحدات الاجتماعية، وتوسيع شبكة العلاقات، وموعد يستغل لطرح كثير من الموضوعات التي تهمّ مجتمع المنطقة من قريب أو بعيد، فهو من هذا الجانب يمثل مؤتمرا شعبيا، يتدارس من خلاله أعيان أولاد نهار قضاياهم بشكل خاص وقضايا الوطن بشكل عام، كما يمثل رمزا لوحدة الهدف في الجماعة تجاه القضايا الخارجية، فهو يبرز بوضوح ذلك التماسك الاجتماعي القوي الذي يسود بين أهل المنطقة.

وهي أيضا (الوعدة) وسيلة من أنجح الوسائل لتأييد وتدعيم نظام الوحدات الاجتماعية واستمراريته، وفي مثل ذلك يقول روس (Ross) : - بأنها - "الرابطة التي تجمع شتات الجماهير وإذا انحلّت هذه الرابطة تفرقت الجماهير وصارت أمورها مضطربة"(فوزية ذياب، 1980، ص182).

والوَعْدَة في الأصل هي عادة اجتماعية، والعادة فيما يتصل بتعريفها ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، وهي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الإنساني، نصادفها في كل مجتمع، تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة، عند الشعوب البدائية، كما عند الشعوب المتقدمة ..وهي موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وإرادة مطلقة،

كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها في ظل مجتمعاتنا العلمانية المتطورة(محمد الجوهري، 2006، ص37).

وتعتبر وَعْدَة الولي الصالح والشيخ الناصح سيدي يحيى بن صفية أرضا خصبة لدراسة النسق القرابي الذي يتشكل على أساسه النظام الاجتماعي عند أولاد نهار، يتجلى ذلك بوضوح عند التوزيع الجغرافي للوحدات الاجتماعية (فرق القبيلة) في موضع الاحتفال، هذا التوزيع الثابت والمتوارث جيلا عن جيل، فحين تصل الوحدات الاجتماعية إلى مكان الاحتفال تتوزع على مناطق محددة خاصة بكل وحدة، حيث تنتشر فيها أسرها بفرسانها وخيولها ناصبة خيامها وما تحتاجه من لوازم، وتعرف هذه المناطق المخصصة في الذاكرة الشعبية لأهل المنطقة بـ (الحَجْرَوات) ومفردها (حْجِير)، وكل وحدة اجتماعية مطالبة ببناء خيمة كبيرة يتجمع فيها أعيانها لاستقبال الضيوف وإكرام الزوار الذين يفدون عليهم من كل ناحية.

ويمكننا تحديد طبيعة بنية النسق القرابي في قبيلة أولاد نهار أثناء هذا الموسم الشعبي أيضا من خلال ممارستهم لألعاب الفروسية؛ حيث تنفرد كل وحدة اجتماعية تجمعها القرابة الدموية بممارسة الفروسية دون الاختلاط بوحدات أخرى أساسا، ولكن يشترك معها فرسان آخرون من وحدات أخرى أو حتى من خارج القبيلة استثناء، وتشارك كل وحدة اجتماعية بكوكبة من الفرسان يصطلح على تسميتها شعبيا بـ (العَلفَة)، وقد لوحظ أن هذا السلوك يبعث نوعا من التنافس بين هذه الوحدات الاجتماعية، من أجل أداء جيد ومنسّق، يترجمه جمال الفرس، والانطلاقة المتوازية للفرسان، والانسجام العام عند إطلاق البارود.

ويؤكد شوقي عبد الحكيم أن إخضاع الممارسات الاجتماعية والثقافية في القبيلة للدراسة والبحث، يعين الباحث فعلا في فهم وتحليل البناء القرابي في علاقاته المتبادلة مع بقية الأنساق ويمكّنه من ضبطه، حيث يقول: "ولعل الملمح الأساسي لتقدّم الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ القرن الماضي كانت زيادة الانتباه إلى البناء أو النسق القرابي.. بالإضافة إلى كيفية تنظيم العائلات والعشائر والقبائل وبقية النظم والمعتقدات الطقوسية والدينية واللغوية؛ بل ويمكن القول بأنه حتى لعب الأولاد أو نظرية الألعاب التي كان "كروبير" أول من لفت الأنظار إلى أهميتها عام 1942 تساعد أكثر في إيضاح النسق القرابي"(شوقي عبد الحكيم، دس، ص248.)

الوحدات الاجتماعية (الفرق/العشائر) في قبيلة أولاد نهار شديدة التمسك ببعض القيم الثقافية الشعبية المتوارثة، خاصة تلك المرتبطة بجدهم الولي سيدي يحيى بن صفية أو الصادرة عنه بوجه أو بآخر، ومن بين تلك الأنماط الثقافية نذكر الرواية الشائعة والمأثورة عنه والمتداولة بين أبناء المنطقة بنوع من التقديس والاحترام، والتي تتخذ شكل الوصايا والتوجيهات، حيث نرى أنها أصلا لكثير من السلوكيات الاجتماعية في المنطقة بشكل عام، وفي مناسبة الوَعْدَة بشكل خاص.

الرواية المأثورة في منطقة أولاد نهار ملخصها: أنّ سيدي يحيى بن صفية اجتمع بأولاده الذين تشكل ذريتهم اليوم وحدات اجتماعية فاعلة (عشائر)، فذكر لكل واحد ما يناسب حاله وما قد يؤول إليه أمر ذريته من بعده، فقال لهم: محمد كريمكم ،الجيلالي بركتكم، عبد الرحمن قطبكم، أبو بكر فالكم عبد القادر هْبيلكم الشاذلي عِنايْتُكم، امْحمّد مُؤَذِّنُكم، بن طيبة في عَارْكم، وسكت عن الباقين، وهم الأخوين: أبو الطيب ويحيى اللذين أرسلهما خارج المنطقة (ذريتهما متواجدة في

المغرب الأقصى، تُكَون قبيلة معروفة يطلق عليها اسم اليحياويين)، والحاج أبو كورة الذي لم يعقّب، وأحمد الذي ربما يكون قد توفي قبل إعطائهم هذه الصفات(رواية كبار أعيان ومشايخ قبيلة أولاد نهار، ويذكرها أيضا صاحب كتاب المرآة الجلية، ص42)

وقيمة هذه الرواية تكمن فيما تعكسه على مستوى تقسيم العمل وتوزيع الأدوار والمهام والسلوكيات التي تقوم بها الوحدات الاجتماعية (العشائر)، خاصة أثناء موسم وعدة سيدي يحيى بن صفية، حيث تظهر جلية في تلك الصفات التي أصبحت مصدرا لنشاطات اجتماعية معينة، كالصفة التي اختص بها سيدي يحيى بن صفية ابنه أبو بكر وهي (الفأل)، فمنذ ذلك الوقت إلى اليوم صار أولاد نهار لا يفتتحون مهرجان الفروسية والبارود (ألعاب الفانطازيا) في موسمهم الشعبي هذا إلاّ بفرقة تنتمي إلى أولاد سيدي أبي بكر (المعروفين بأولاد سيدي عبد الله)، وهذا تيمّنا منهم وتبركا بالصفة التي منحها سيدي يحيى بن صفية لجد هذا البطن (الفرقة) عندما قال: (أبو بكر فَألْكُم).

ولذلك يَعتبر أولاد نهار أن افتتاح فرسان هذه الوحدة الاجتماعية بالضبط لمهرجان الفروسية، هو من باب فأل الخير عليهم وعلى موسمهم الشعبي هذا، ومن ثم أصبح السلوك فعلا رسميا لا تحيد عنه القبيلة في كل مواسمها، وحدث أن افتتح مهرجان الفروسية في بعض المرات بكوكبات لا تنتمي إلى هذا البطن (أولاد سيدي عبد الله) فتعرضت لحوادث كانت أحيانا مؤلمة(من الروايات الشفوية المتداولة في المنطقة موضوع بالدراسة).

ومن بين الصفات المأثورة أيضا والتي صارت توجه السلوك الاجتماعي في هذا الموسم الشعبي، تلك التي اختصت بها فرقة أولاد سيدي مُحمد، حيث أصبح لهذه الفرقة شرف افتتاح عملية إكرام الناس الوافدين من كل فج عميق وإطعامهم، قبل غيرها من الوحدات الاجتماعية الأخرى، وذلك تأويلا للصفة التي منحها سيدي يحيى لجد هذه الفرقة حينما قال : مُحمد كْرِيمكُم.

ومن هنا أصبحت هذه الممارسات الاجتماعية شيئا فشيئا تتخذ طابع السلوك الشعبي الرسمي، وتتجاوب معها الوحدات الاجتماعية في منطقة أولاد نهار؛ بل وتزداد تمسكا واعتدادا بها، وتعتبرها حق الأحفاد وواجبهم نحو وصايا جدّهم سيدي يحيى بن صفية، لذلك يقبلون بهمّة عالية على تلك المهام والأدوار الموكلة بهم، كما أنها توضع في خانة كرامات سيدي يحي بن صفية السارية بعد موته.

وقد لخص محمد الجوهري السمات الرئيسة للعادة الاجتماعية(محمد الجوهري، 2006، ص39-40) والتي نرى أنها تنطبق تماما على ظاهرة الوعدة وما يصاحبها من سلوكات وعادات اجتماعية شعبية متجذرة في المنطقة:

-فليست هناك عادة اجتماعية خاصة بفرد واحد فقط، إنما العادة تظهر إلى الوجود حين يرتبط الفرد بآخرين ويأتي أفعالا تتطلبها منه الجماعة أوتحفزه عليها، حينئذ نكون فقط بصدد عادات اجتماعية أو شعبية. وظاهرة الوعدة لها امتداد عمودي وأفقي وتستمد سلطتها منهما؛ بمعنى أنها ضاربة بأطنابها في التاريخ؛ أي حضور الماضي المقدّس، ومتجذرة على مستوى كامل النسيج الاجتماعي والشعبي للمنطقة، وهي تعني القيم الجماعية أو تحقيق ذات الفرد داخل الكل.

-من خصائص العادة ثانيا أن تكون متوارثة أو مرتكزة إلى تراث يدعمها ويغذيها، وقد سبق وأن أوضح ريل Riehl أن السلوك يتحول إلى عادة عندما "يثبت من خلال عدة أجيال، ويتوسع وينمو، ومن ثم يكتسب سلطانا"، وفي هذا السياق تقوم تلك الرواية الشفوية –السالفة- والمأثورة عن الولي سيدي يحي بن صفية وتنهض دليلا على ذلك، فمثل هذه المأثورات الشعبية لها سلطة قوية على الضمير الجمعي لساكنة المنطقة، حيث ترسم الكثير من السلوكات الاجتماعية وتحددها لهم.

-والعادة الاجتماعية الشعبية تتطلب الامتثال الاجتماعي؛ بل الطاعة الصارمة، فهي في ذلك رائد للقانون، يقول توليس:"العادات متطلبات سلوكية تعيش على ميل الفرد لأنه يمتثل لأنواع السلوك الشائعة عند الجماعة، وكذلك على ضغط الرفض الجماعي لمن يخالفها". وهنا تظهر سلوكات اجتماعية كثيرة تعاقب وتتصدّى لهؤلاء الذين يتخلفون عن المشاركة في هذه التظاهرة الشعبية (الوَعْدَة) أو يشككون في قدسيتها، تصل أحيان إلى المقاطعة الجماعية والعزل لمن يصدر عنه ذلك.

-والعادة في الأخير ترتبط بظروف المجتمع الذي تمارس فيه، ونعني بهذا أنها مرتبطة بالزمن، مرتبطة بموعد أو مناسبة زمنية معينة، من هذا مثلا: العادات المرتبطة بتتابع فصول السنة، أوهي مرتبطة بمواقف أو أحداث معينة في حياة الفرد والمجتمع، وهذا الارتباط بزمان ومكان معينين هو دليل على القيمة الوظيفية العالية التي تتمتع بها العادات في المجتمع.

وهذه السمات المميزة الذي ذكرها محمد الجوهري هنا تتجسد بوضوح في هذه الظاهرة الشعبية موضوع الدراسة ("وَعْدَة سيدي يحي بن صفية") فهي ترتبط بزمن محدد؛ حيث يفتتح هذا المهرجان الشعبي رسميا في منتصف الشهر القمري، من شهر سبتمبر عادة، أومن شهر أوت استثناء، وهي تصادف الاحتفال الموسمي، الخاص بالموسم الفلاحي خاصة بعد جمع حصائل السنة الفلاحية، وقبل الاستعداد للموسم الفلاحي الجديد، وهي أيضا تتعلق بحدث شخصي، وفاة ولي المنطقة ورجلها الولي سيدي يحي بن صفية، وتقام في مجال جغرافي مقدس بالنسبة للمنطقة، إذ تضرب الخيام التي خف محملها وتمارس ألعاب الفروسية (الفانطازيا) بالقرب من ضريح سيدي يحي بن صفية وفي رحاب تربته التي ينظر إليها بكثير من القداسة والاحترام.

وحول وظائف الاحتفالات العامة (ومنها المواسم الشعبية)، ومدى تمسك الجماعات البشرية بالقيم الاجتماعية والثقافية المتعلقة بها، تعتبر فوزية ذياب أن الوظيفة الأكثر أهمية فيها: "هي النزول بقيم الجماعة من التجريد إلى الواقع، وتفسير ذلك هو أن الاحتفالات هذه تؤثّر في الأفراد فتجعلهم يتجاوبون عاطفيا مع ما تتضمنه من أفكار، وما تثيره من صور ذهنية"(فوزية ذياب، 1980، ص182).

فالإنسان على رأي محمد الجوهري: وحدة واحدة، ذو طبيعة اجتماعية متجانسة، وهو كحيوان اجتماعي يخضع دائما وأبدا لسطوة التراث، سواء اتسعت دائرة هذا الخضوع أو ضاقت، فهي قطعة من ذواتنا ومن واقع حياتنا، طالما كنا نعيش في مجتمع إنساني.. ومثل هذه العادات الاجتماعية الشعبية تؤدي في كل طور من أطوار حياة الجماعة وظيفة وتشبع حاجات ملحة، ومن البديهي أنها في أدائها لهذه الوظيفة في مجتمع معين (محدود بزمان معين وبمكان معين) –مثل

قبيلة أولاد نهار موضوع الدراسة- ترتبط بظروف هذا المجتمع وواقعه(محمد الجوهري، 2006، ص38).

ويساهم هذا الموسم الشعبي في الضبط الاجتماعي، بتدعيم العلاقات الاجتماعية داخل قبيلة أولاد نهار بتلمسان، لتقوية أواصر الروابط وتمتينها بين مختلف الفرق أو الوحدات الاجتماعية: وقد اتفق كل من رادكليف براون ودوركايم وأحمد الخشاب وعاطف غيث وفاروق اسماعيل على أهمية الشعائر في التعبير عن وحدة المجتمع، وتأكيد وتعميق القيم والمعتقدات، وتحقيق الضبط الاجتماعي بالحفاظ على تماسك النظام الاجتماعي عن طريق تقوية المشاعر والروابط والعواطف(منال عبد المنعم جاد الله، دس، ص91).

فمثل هذه الشعائر والطقوس المرتبطة بالمقدّس وما يصاحبها من احتفالية شعبية استعراضية، وما يتم فيها من تقسيم للعمل وتوزيع للأدوار المختلفة، تدل على تماسك المجموعات البشرية، ووسيلة لمد جسور التعارف بين الأفراد والجماعات وتقريب الفوارق، وهي أيضا رمز لوحدة الهدف داخل القبيلة.

3.7 أهمية هذه التظاهرة الشعبية في حفظ التراث الشعبي:

يعتبر موسم تكريم الولي الصالح سيدي يحيى بن صفية، أو كما يطلق عليه في الذاكرة الشعبية للمنطقة (الوَعْدَة) مهرجانا شعبيا متنوعا، تتمظهر من خلاله كثير من النشاطات التي تمتزج فيها الحركة بالكلمة، لتشكل مشهدا ثقافيا شعبيا أو (كرنفالا): الأدب الشعبي المتناقل من جيل إلى جيل، الخرافات والمعتقدات الشعبية، الأغاني والرقصات، التنظيم الاجتماعي، التنظيم الاقتصادي، القوانين العرفية، العادات، الفنون الشعبية.

ولعل من أبرز ملامح التراث الشعبي الأكثر حضورا في هذه المناسبة الشعبية، والتي تشهد تفاعلا كبيرا داخل النسيج المجتمعي في المنطقة، يمكننا الإشارة إلى ثلاثة أشكال من ألوان التعبير الشعبي:

-أغنية الصف النسوية الحركية الأدبية الناطقة.

-رقصة العلاوي باعتبارها فنا رجاليا حركيا راقصا.

-حلقات الحضرة باعتبارها فنا سماعيا صوفيا شعبيا.

تتداخل في هذا الموسم الشعبي المعتقدات الشعبية والعادات والتقاليد مع الرقص الشعبي (رقصة العلاوي تحديدا)، وأغاني الصف، وحلقات الحضرة (السماع الصوفي)، وحلقات المدّاحين التي تخوض في سير الصالحين وخصال العارفين وبطولات المقاومين، وألعاب الفروسية والبارود (الفانطازيا)، لترسم هذه الفسيفساء في النهاية لوحة فنية عن ملامح الثقافة الشعبية بنوعيها (المادية واللامادية) في منطقة أولاد نهار.

مما سيؤهل مثل هذه المناسبات الشعبية لاستثمارها من زاويتين، زاوية علمية وأخرى سياحية:

بالنسبة للأولى: تعتبر هذه المناسبة أرضية خصبة للباحثين والأكاديميين المهتمين بالتراث الشعبي وقضايا علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بمختلف تخصصاتها(الاجتماعية، الدينية والثقافية...) للتعاطي مع التراث الشعبي بمختلف صنوفه وفنونه (جمعا وتصنيفا ودراسة

وتحليلا)، قصد حماية ما أمكن من هذا المعين الذي لا ينضب، وصيانة الذاكرة الشعبية من التلف والضياع، في زمن ينظر فيه كثير من الناس إلى هذا التراث نظرة ازدراء واستخفاف.

أما الثانية: فمثل هذه المناسبات الشعبية تلح على المهتمين بقضايا تطوير السياحة الوطنية، بضرورة استثمارها ثقافيا وإعلاميا، لاستقطاب السياح (داخليا وخارجيا) هذا من جهة، وتعريفهم بالذاكرة الشعبية للجزائريين من جهة أخرى، هذه الذاكرة التي كانت ولا زالت وستزال حامية حمى الشخصية الوطنية والهوية الحضارية بمختلف أبعادها الأمازيغية والعربية الإسلامية، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

3.8 أهم النائج المتوصل إليها: ترتبط هذه الممارسة الاجتماعية التي يطلق عليها في المنطقة المعنية بالدراسة اسم "الوعدة" بأربع مجالات حيوية:

-مجال جغرافي: تمثله المنطقة المعنية بالدراسة والواقعة إلى الجنوب الغربي لولاية تلمسان الجزائرية.

-مجال بشري: تمثله قبيلة أولاد نهار بمختلف تركيباتها الاجتماعية (أبناء القلب وأبناء الصلب)

-مجال زمني: مرتبط بالمواسم الشعبية التي تكون عادة مع بداية شهر سبتمبر، أي بعد جمع حصائل السنة الفلاحية والاستعداد للموسم الفلاحي الجديد، ويختتم بالأيام الفاضلة كيوم الجمعة.

-مجال مقدّس: مرتبط بضريح رجل القبيلة ووليها سيدي يحي بن صفية جد أولاد نهار ورمزيته في الذاكرة الشعبية.

والفرد حينما يقبل على مثل هذه الممارسات الجماعية ويتمسك بها فهو يسد بذلك حاجات نفسية ودنيوية ودينية، فهي إشباع نفسي وعقد اجتماعي وعقد ديني، باعتبار أن الفعل الشعائري في عرف الجماعة مرتبط بالمقدّس.

خاتمة:

يعتبر موسم "وعدة" الولي سيدي يحي بن صفية من أهم المواسم الشعبية وأشهر المناسبات الاجتماعية في منطقة أولاد نهار بتلمسان، بل في كل ربوع الجنوب الغربي لبلادنا، وهذا المهرجان الشعبي الضخم تتداخل فيه مجموعة من الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية والنفسية والاقتصادية والفرجوية الترويحية (ألعاب الفانطازيا).

توظيف القبيلة لمثل هذه المواسم الشعبية كأحد الطقوس الدورية يجدد التلاحم الاجتماعي كشكل من التنظيم الرقابي الذي يحمي القبيلة في بعدها الاجتماعي والثقافي والمجالي، وهي تضمن لمثل هذه المجموعات البشرية المحافظة على هويتها اللغوية والإثنية والتراثية، وتضمن أيضا استمراريتها وعدم تفككها (تواصل الأجيال).

قائمة المراجع:

1. بنعبد الله عبد العزيز(2001)، معلمة التصوف الإسلامي، ج2، ط1، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب.
2. الجوهري محمد(2006)، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، ط1، مصر.
3. الجيلاني بن عبد الحكم(1364ه)، المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، دط، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر.

4. عبد الحكيم شوقي(دس)، الشعر الشعبي الفولكلوري عند العرب، دراسة ونماذج، ط7، دار الحداثة، بيروت، لبنان.
5. بن صفية أحمد(2005)، (مشجرات نسب أولاد نهار)، دراسات مخطوطة.
6. العشماوي أحمد بن محمد(1961)، السلسلة الوافية والياقوتة الصافية، المأخوذة من كتاب: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب(في أربعة كتب، جمع وتأليف الشيخ بالهاشمي بن بكار)، مطبعة بن خلدون، تلمسان، الجزائر.
7. العلوي إسماعيلي مولاي عبد الحميد(1985)، تاريخ وجدة وأنقاد في دوحة الأمجاد ، ج2/1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
8. بن عمارة خليفة(2002)، سيرة البوبكرية، أجداد أولاد سيدي الشيخ، ج1، ترجمة: محمد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، الجزائر.
9. الغزالي أبو حامد(1980)، أيها الولد المحبّ، تحقيق عبد الله أبو زينة، ط3، دار الشروق، بيروت، القاهرة.
10. فوزية ذياب(1980)، القيم الاجتماعية، مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
11. قيداري قويدر(2009)، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار، دراسة تاريخية وأنثروبولوجية، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر.
12. محمد بن الحسن بن يحيى بن سيدي يحيى بن صفية (دس)، البستان الطيب في مناقب أبي يحيى وأبي الطيب، (مخطوط).
13. عبد المنعم جاد الله منال،(دس)، التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.
14. Capitaine Noel, Sep/Dec(1917), « Document Historique sur les tribus de l'annexe d'El aricha », B.S.G.O (Bulletin trimestriel de la société de la géographie et d'archéologie d'Oran), fondée en(1878) , imprimerie L Fouque – Oran ,Algérie.
15. Jaque Berque(1982) ,Ulemas fondateur de Maghreb 17ème siècle, Bibliothèque arabe sindebad , Paris.
16. Louis Rinn(1884), Marabouts et Khouan-Etude sur lislam en Algerie ; Adolphe Jourdan ;Librairie éditeurs-Alger.
17. Millad Aissa(1986), Alyaquouta , poème mystique de Sidi Cheikh- Essai d'édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi, entreprise nationale du livre – Alger.